الفصل الثاني

أقوام تتجرع غصص العذاب

استقر لوط في سدوم بعد أن ضاقت الأرض المقدسة على قومه الذين جاؤوها من مصر مع إبراهيم الخليل بمال كثير وخير موفور، وعهد على هـؤلاء أنهـم ذوو طوايا سيئة، لا يتناهون عن معصية ولا يتعففون عن منكر: يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويتربصون لكل سارٍ، وتعطشت نفوسهم إلى الخبائث واستحكم فيها حب المنكرات، ونصح لوط قومه، ودعاهم إلى الهدى ولكن أنّى لهم أن يستجيبوا وقد ران على قلوبهم حبّ الشهوات، حذرهم سوء العاقبة، وأنذرهم من سوء المصير فما أقلعوا عن معصية بل تمادوا فيها، فاستنزل لوط العذاب عليهم بدعاء ضارع فاستجاب الله دعاءه، وحقق سؤاله، وخرج لوط وأهله وفارق تلك القرية غير آسف عليها، حتى إذا صار بعيداً عنها، جاءها أمر الله ونزل بها عذابه، وزلزلت الأرض زلزالها، فصار عاليها سافلها ثم غشيت بمطر من سجيل[1]، فأصبحت ديارهم بلقعاً[2]، وبيوتهم خاوية بما ظلموا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]

١

هذه قصة قوم لوط لكن آيات القرآن الكريم وصفت قوم لوط وصفاً حسياً مشخصاً يبرز مراحل تلك الأحداث المبيدة التي جعلت قراهم أثراً بعد عين،

(١) السجيل: الحجارة الصغيرة.

(٢) «قصص القرآن» لمحمد أحمد جاد المولى وزملائه ص: ٦٤ ـ ٧٠.

وكان ذلك الوصف الفني يتكىء على عناصر عديدة، من هذه العناصر: العنصر الزمني؛ تبدأ الحادثة مع شروق الشمس ـ بعد أن سبقتها نصائح كثيرة ـ وتكون بدايتها حجارة شديدة صلبة ترسل لهؤلاء القوم مُعَلَّمة[1] محددة، لمن أسرف ولم يَرْعَوِ، قال تعالى حكاية عن قوم لوط: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣ـ٣٤].

وفي سورة الحجر يشير البيان القرآني إلى الزمن الذي قُطع فيه دابر قوم لوط الذين أذهلهم الصوت القاصف عند شروق الشمس، وأصابهم الخسف، وجعل عالي مدنهم سافلاً، ثم تراكم حطامها ليبقى آية للمتوسم المتأمل على طريق الركب المسافرين.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] وفعلاً ما حدث: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٣ـ٧٦].

بهذه الكيفية يصف القرآن العذاب العلوي، فهو مطر ولكنه في الحقيقة حجارة مسوّمة تتالى من السماء تتعقب قوم لوط ثم تأخذهم حيث كانوا[2].

وتوشك أن ترسم الصورة عينها في سورة هود مع زيادة وصفية تمنحها الوضوح والاكتمال، فالحجارة السجيلية منضّدة معلّمة ذات تأثير على كل مسرف وظالم، وهذه الإعادة للصورة الفنية إعادة هادفة؛ فالعذاب وقع لقوم كانوا على سطح الأرض حيناً ولكنه غير موقوف عليهم، فهو قريب من كل مَنْ هو قريب السيرة منهم، فليأخذ حذره، ويظن خطأً من يتوهم أن الإعادة في القرآن لغير ما هدف سام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٣٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٥ وورد أن السجيل والسجين بمعنى واحد، وهو الحجر الشديد، وقيل حجارة من طين، أي محجرة قوية شديدة، وقيل سجيل فارسية وهي هناك: الحجارة من الطين. وعثرت في مطالعاتي أنها سميت كذلك لأنه كان مسجل عليها اسم مَنْ تصيب، فهي معلومة محددة.

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ـ٨٣].

وإن القدرة الفنية في هذا الوصف لِمَا نزل بقوم لوط تكمن في التعبير الموفق عن ذلك التدمير الكامل الذي يقلب كل شيء، ويغير المعالم ويمحوها، ولعل هذا القلب أشبه بأخلاق قوم لوط المقلوبة الهابطة، وفي هذه الآية تصوير عجيب يلقي ظلّه في الحس ولا يفصح عنه التفسير، كما يفصح عنه هذا الظل الذي يلقيه، وما هي من الظالمين ببعيد[1].

وتعود سورة «القمر» إلى حكاية هؤلاء القوم ـ قوم لوط ـ فتصفهم وقد أصبحوا هدفاً لريح شديدة تحصبهم بالحجارة، حين لم يأخذوا بنصيحة نبيهم، بل ركبوا رؤوسهم يلهثون وراء شهواتهم، فقد صبحهم بُكْرةً عذاب شديد قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة، وكما أسلفنا أن وصف القرآن لقوم لوط ـ وقد أخذتهم بداية العذاب ـ وصف بليغ يتكىء على اللقطة الموحية ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] ويستخدم القرآن الحكمة الموحية في معرض وصفه لهم مرة ثانية ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ [القمر: ٣٦] وبذلك تتعاون عناصر لفظية، وعناصر زمانية، وثالثة بيانية؛ لترسم صورة العذاب أصاب هؤلاء القوم ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ

(١) اقرأ ما ورد في تفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب ١٢/٥٩ حول هذه الصورة، وجاء في «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص: ٧٧ ـ ٧٨ تحليل مسهب للصورة عينها في الآية ﴿مسومة عند ربك للمسرفين﴾: «حقيقة التسويم هي العلامات التي يعلّم بها الفرسان والأفراس في الحرب..» ويوضح ذلك أكثر حين يقول: والمعنى أنه سبحانه لما جعل تلك الحجارة حرباً لهم وأعواناً عليهم، وصفها بوصف رجال الحرب وخيولهم، فكأنها مرسلة من عند الله، أي من عند ملائكته الذين تولوا الرمي بها كإرسال الخيول المسومة على أعدائها، وإن لم يكن هناك تسويم على الحقيقة وقد قال بعضهم: «إن تلك الحجارة كانت على الحقيقة معلمة بعلامات تدل على أنها أعدت للعذاب وأفردت للعقاب». وإني أرى أن بسط الحديث على هذا النحو قد أفقد الوصف القرآني إيحائيته المطلقة.

﴿رَوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٣ـ٣٨]

وقد يرد الوصف موجزاً مكثفاً حين يعرض لقوم لوط في سورة أخرى، حيث ترد الإشارة سريعة تناسب السياق، ففي سورة النحل يوصف الحاصب الذي أصاب قوم لوط بالمطر لغزارته وتتابعه، ثم يوصف بالسوء خلاف الأمطار المألوفة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[1] [النمل: ٥٨].

وفي سورة الأعراف توشك أن ترد الآية نفسها، لكن وصف القرآن يزيدها غنى، حين يضيف عنصراً جديداً، وهو المخاطب الذي يجعل الصورة أشد واقعية وهذا العنصر هو الخطاب والحوار الرشيق الذي يدعو للتأمل في عاقبة هؤلاء ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[2] [الأعراف: ٨٤].

وفي سورة العنكبوت تكون هذه الأحداث ذكرى للمعتبرين، حيث يشير الوصف القرآني إلى العذاب وقد هطل من السماء، فأصاب الفاسقين وتركهم آية ظاهرة للعاقلين التالين: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤ـ٣٥].

أقول: رسمت هذه الآية مشهد التدمير الذي أصاب القرية وأهلها جميعاً إلا لوطاً وأهله، وكان التدمير بحجارة من طين، وكان هذا المصير هو المآل الطبيعي لهذه الشجرة التي فسدت فلم تعد صالحة للإنماء ولا للحياة، ولم تعد إلا للاجتثاث والتحطيم.

---

(١) ووردت الآية عينها في الشعراء [١٧٣]

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣١.

٢ـ ثمودُ بَيْنَ الرجفة والصَيْحة

خلفت عاداً ثمودُ الذين أورثهم الله الأرض فعمروها عمراناً عظيماً، وفجروا خلالها الأنهار، وغرسوا الحدائق، وشادوا القصور، واتخذوا الجبال بيوتاً، ليأمنوا غوائل الدهر، ونوائب الحدثين، وفعلاً كانوا في سعة من الرزق، ولكنهم كفروا النعمة، وعتَوا في الأرض عتواً، وعبدوا الأصنام واستحكم حبّ الدنيا في نفوسهم، فأرسل الله إليهم صالحاً فنصح وحاول إصلاحهم فما استطاع، صُمَّتْ آذانهم عن سماعه، وغلّقت القلوب، وعميت الأبصار وجاءتهم الدلائل على صدق صالح، حين نتق الجبل لهن ناقة، لهم شربُ يوم، ولها شرب يوم معلوم، وسرعان ما ضايقت القوم فائتمروا على عقرها وقد تمّ لهم ما أرادوا، فدمدم عليهم رب العالمين بذنبهم فسوّاها.

وقد عرضت آيات القرآن لثمود؛ فوصفتهم وصفاً حياً هادفاً، تستمد صورته حيويتها وخلودها من العنصر البياني الذي قصد القرآن الكريم إليه قصداً؛ ليُنقل المعنى بصورة فنية نشطة ويعلق بذهن القارىء أيما علوق.

يبدأ وصف القرآن لما نزل بثمود حين قيل لهم: تمتعوا حتى حين[1] لكن التهديد لم يلق استجابة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَٰعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٤ـ٤٥] فالصاعقة: أخذ مؤلم، سيقت مساقاً فنياً لتكوّن صورة معبرة عن عظمة الأخذ حيث أسند إليها الأخذ والإحاطة بالقوم وإهلاكهم.

وفي سورة هود، تتسع دائرة الوصف أكثر، فهؤلاء الظالمون من ثمود تجاوزوا حدودهم، ففاجأهم صوت قاصف عند شروق الشمس، تركهم جاثمين، رممهم باقية، وآثارهم بادية في طريق من ورد الشام[2] وتركوا عبرة

(١) الحين هنا: ثلاثة أيام بدليل قوله: ﴿.. تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ...﴾ [هود: ٦٥].

(٢) في «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار تفصيل لما حدث ص: ٥٨.

لغيرهم، وهكذا فالعقوبة صيحة من السماء، ورجفة شديدة من أسفل منهم فاضت لها الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة وأصبح الناس صرعى[1] ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧ـ٦٨]. أما في سورة الأعراف فقوم صالح تناولتهم رجفة راجفة حصدتهم، وجعلتهم أثراً بعد عين، وانقلبت الديار العامرة خلاء خاوية. ذلك ما توحيه تلك الصورة الفنية في إسناد الأخذ إلى الرجفة، وكأن شيئاً بعد ذلك لم يكن. ويفهم من هذا الوصف أن الأخذ كان سريعاً جداً من نحو، وأنه عظيم شديد من نحو آخر، وما إهلاك الأقوام مهما عتوا وعظموا بمعجز الله شيئاً ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

كما أن سورة النحل عرضت ما أصاب ثمود وأغنت الوصف حين رسمت صورة أوسع لهؤلاء القوم، فهم يمكرون مكراً ماكراً ويدبرون لكيد نبي الله صالح، وكانت النهاية في غير ما فطنوا له؛ فقد أخذهم عذاب قصيم ترك بيوتهم خاوية ساقطة منهدمة، بيوتهم هم وبيوت من شايعهم[2]، وتترك آيات الوصف ظلالاً هادية من أخبار السابقين الذين كانوا صدى، هادية في طريق الإنسان من العيان إلى الزوال ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠ـ٥٢].

ولتكون الصورة أكثر وضوحاً، وصف القرآن جانباً من حياة قوم صالح فيما مضى وهم في حالة الرخاء، حيث كانوا في جنات وعيون وحدائق ذات زروع، ونخل هضيم يسكنون بيوتاً، يتخذونها في الجبال، تعمرهم الفرحة نشاطاً لقد كانوا ﴿فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٦﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا

(١) لاحظ ما جاء في تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٧.
(٢) تفسير النسفي ٤/ ٢٢.

هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾[1] [الشعراء: ١٤٧ـ١٤٩].

أشارت الآيات الكريمة التي عرضت لقوم صالح إلى زمان الأحداث، وإلى نوعها ومظاهرها في المعذبين، والنهاية التي وصلوا إليها فيها، وجعلت صورة البلاء حية في الأذهان، وعرضت إلى الجانب النفسي لقوم صالح الذين استحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بظلمهم وتركتهم أحاديث ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وأخيراً كشفت سورة القمر في بعض آياتها عن نهاية ثمود وقد وقعوا في قبضة العذاب، وعرضت قصتهم عرضاً موحياً فيه روح الحياة الواقعية إذ تجعل القارىء يترقب ماذا سيقع من أحداث، وشُبهت ثمود وقد مسّهم العذاب بالهشيم اليابس تأكله الماشية[2]. صيحة واحدة فعلت بهم ما فعلت وجعلتهم كهشيم المحتظر، وهو مشهد عنيف مخيف يبقى في العين والقلب[3] وهكذا فالصيحة في بيان القرآن تنقلب مخلوقاً حيّاً شاخصاً بارزاً أُرسل فلم يترك شيئاً على واقع الحياة ـ حياة ثمود ـ حياً ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

٣ـ أهلُ مدين تحتَ الظلة

سكن أهل مدين معان من أطراف الشام، وأساؤوا إساءة بالغة حيث عبدوا أيكتهم، وبخسوا الناس أشياءهم، وكانوا إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرون... ودَأَبَ شعيب على نصيحتهم، وحذرهم مما يصيرون إليه، فما لاقت نصائحه عندهم قبولاً، فابتلاهم الله بحر شديد لم يطيقوه، فنفروا منه إلى سحابة ظهرت في الأفق آملين أن يجدوا فيها خلاصاً

(١) فارهين ـ الفراهة الكيس والنشاط.
(٢) تفسير النسفي ٥/ ١٢٠.
(٣) ورد تحليل قصة ثمود كاملة في تفسير «في ظلال القرآن» ٢٧/ ٩٠ ـ ٩٢.

ولكنها كانت تنتظرهم لتخنق صوت الحياة فيهم وترسل عليهم شواظاً من لهيبها[1].

وصف القرآن الكريم ما أصاب أهل مدين وصفاً يزيد النازلة التي أصابتهم وضوحاً، ويكسبها حياة، وقوة تجعلها متخيّلة محسوسة؛ فقد أصاب القوم رجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، بدأت الآيات حكايتهم من بدايتها تصفها متدرجة تدرجاً واقعياً ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦ـ٣٧].

وفي سورة الشعراء يصف القرآن أصحاب الأيكة، ويرسم صورة واسعة لهم حين أخذهم الله بعذاب يوم الظلّة، وهو عذاب وصفته آيات القرآن بالعظمة؛ ذاك أن أهل مدين طالبوا شعيباً بأن يسقط عليهم كِسَفاً من السماء ليكون دليل صدقه، وصحة رسالته ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2] [الشعراء: ١٨٧ـ١٨٩].

«وفي سورة هود كثّف وصف القرآن ما أصاب أهل مدين الذين أخذتهم الصيحة وتركتهم جاثمين هامدين، وأصابهم ما أصاب قوم صالح من قبل وكان مصيرهم كمصيرهم خلت منهم الدور»[3]. ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤ـ٩٥].

(١) وردت قصتهم في «قصص القرآن» لمحمد أحمد جاد المولى ص: ١٨ وفي «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار ص: ١٤٥.

(٢) في السورة عينها قصة أهل مدين كاملة... وقيل: إن الظلة «سحابة أظلتهم بعدما حبست عنهم الريح وعذبوا بالحر ستة أيام، فاجتمعوا تحت السحابة مستنجدين بها مما نالهم من الحر: فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا» ورد ذلك في تفسير النسفي ٣/ ٤٢٠.

(٣) «في ظلال القرآن» ٦٨/١٢.

والحقيقة أن الصور في الآية الكريمة تتكىء على عناصر فنية؛ ففي هذه الآية استعارة لأن حقيقة الأخذ إنما توصف بها الأجسام، والصيحة عرض من الأعراض فهي بعض الأصوات، إلا أنها أقوى للأسماع صكاً وفَزَعاً، وأبلغ في القلوب وجَلاً ورذْعاً، والمراد أن هلاكهم لمّا كان عن الصيحة حسن أن يقول: إن أخذتهم بمعنى ذهبت بنفوسهم وأتت على جميعهم[1].

وفي سورة الأعراف يصف القرآن ما حلّ بأهل مدين مرة ثانية، لكن الوصف هنا يعتمد على اللفظة الموحية، يعتمد على الرجفة، التي أخذت أهل مدين، وفي كلمة الرجفة إيحاء وإيجاز وتكثيف.

تلك الرجفة التي ارتجفت لها القلوب والديار، والحقيقة هي أن الذي أخذهم حرّ شديد، فكان لا يروي ظمأهم ماء، ولا تمنعهم ظلال، ولا تقيهم الأسراب والمنازل، ففروا هاربين، وخرجوا من ديارهم مسرعين، فقد رأوا سحابة ظنوها لهم من وهج الشمس واقية، وحسبوها للحر دافعة، وتآلّف جمعهم، فرمتهم بشرر وشهب، وجاءتهم صيحة من السماء وأحسوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ففزعوا لهول ما رأوه، ولم يكادوا يحسون ما حلّ بهم حتى أُزهقت أرواحهم، وهلكت نفوسهم[2] ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١].

وتلقي كلمة «الرجفة» غنى على الصورة وتزيد أطراف الصورة طولاً وسَعة؛ حيث ظهر المأخوذ مزلزلاً ومتعتعاً[3].

على هذا النحو تتالى وصف قوم شعيب في سور القرآن وصفاً يوشك أن ينصب على وصف وسيلة البلاء وما حلّ بالمستهدفين به، ففي سورة الأعراف

(١) «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص: ٨٠.
(٢) شاموا السحاب: نظروا أين يمطر.
(٣) تفسير النسفي ٢/ ١٢٤.

ترد الآية عينها التي وردت في سورة هود ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[1] [الأعراف: ٩١].

وليس من شك في أن إعادة الآية له غاية فكرية وفنية، توحي بانتهاء القوم، وأنهم كانوا في لمحة خاطفة من عمر البشرية المديد.

٤ـ فرعونُ وجُنُوده

فرعون طاغية جبّار، شُدِهَ لِمَا رأى من موسى عليه السلام، وانطلق تتنازعه عاطفتان جامحتان: أقواهما الإبقاء على ملكه، وثانيتهما مجاهدة موسى حتى تنجلي عَجاجة ظلامه، وتنكشف سحابة غمته، ويبقى لفرعون المصير، يفعل ما يشاء، وقد عرض الوصف الفني في القرآن الكريم صوراً متتالية لفرعون وجنوده الذين كانوا مظهراً للإلحاد والعناد.. وقد تدرّج الوصف القرآني في تصوير ما أصابهم وكانت الصورة التي رسمتها آيات الوصف عريشة ليبدأ إطارها العام في التشكل في سورة القمر حين تتالت النذر ناصحة ناهية، وفرعون يأبى أن يلقي إليها سمعه أو فكره، بل انطلق يكذّب بالآيات فأخذ أخذاً كان فيه هلاكه وتبابه[2] ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٤١ـ٤٢]

وفي هذا الوصف السريع تظهر العزة والاقتدار وتلقي الكلمة المعبرة ظلال الشدة في الأخذ كما أنّ فيها تعريضاً بعزّة فرعون واقتداره على البغي والظلم فقد ضاعت العزة الباطلة، وسقط الاقتدار الموهوم وأخذه الله وآلَهُ أَخْذَ عزيزٍ حقاً مقتدرٍ صدقاً[3].

في سورة الحاقة يعرض الوصف القرآني الجانب المقابل للصورة؛ هاهو ذا

(١) [الأعراف: ٩١] وفي هود الآية ٩٤، مع فرق؛ ففي الأولى: وردت دارهم وفي الثانية: ديارهم.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٦٦.
(٣) «في ظلال القرآن» ٢٧/٩٤.

فرعون وأضرابه من قبل كانوا يقترفون الخطايا، ويكذبون الرسل فأخذهم الله أخذة أليمة شديدة مهلكة[1] ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩ـ١٠].

ويتابع وصف القرآن فرعون فيصفه وهو يسوق جنده، يلاحقون موسى وصحبه، حتى أدركوهم قريباً من البحر، وهنا يخصّ القرآن الكريم في وصفه فرعون وجنده ويعرض ما أصابهم حين غرقوا وأحاط بهم العذاب إحاطة، وتغشاهم تغشيّاً، كما يغشى الليل النهار، ويترك القرآن الصورة وسيعة تغنيها المخيلة حين يُعمم ذلك العذاب ويشير إليه بكلمة «ما» ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٨ـ٧٩].

وقيل إن «ما غشيهم» من جوامع الكلم التي تستقل ـ مع قلتها ـ بالمعاني الكثيرة: أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله عزَّ وجلَّ[2].

ويعقب الوصف على ذلك فيشير إلى النتيجة التي أوصل فيها فرعون قومه إلى الضياع. ويرى سيد قطب في هذا الوصف أنه ذو وقع في النفس شديدِ مَهُولٍ، لا يحدده تفصيل أو يعطل عمومه توضيح، يقول: «هكذا يُجمِلُ السياق ما غشيَ فرعون وقومه، ولا يفصّله ليبقى وقعُه في النفس شاملاً مهولاً لا يحدده تفصيل، وقاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال في البحر، وكلاهما ضلال يودي إلى البوار»[3].

وفي سورة الذاريات يصف القرآن الكريم فرعون حين استاق قومه يتابع بهم موسى عليه السلام ومن معه، ثم فاجأهم البلاء فَنُبذوا في اليم نبذاً واعتصرت آلام الحزن والندم نفس فرعون ولكن لا جدوى في حزن ولا ندم[4] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٣.
(٢) تفسير النسفي ٣/ ٢٠٥.
(٣) «في ظلال القرآن» ١٦/ ٨٨.
(٤) تفسير النسفي ٥/ ٩٣.

وفي سورة القصص تتكرر الآية عينها وتُضاف إليها عناصر جديدة تزيدها غنى حين تشرك القارىء في التأمل والتخييل، في عاقبة هؤلاء القوم حين أُغرقوا في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد[1]، ولعنوا في ديارهم وهم في الآخرة مقبوحون، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٠-٤٢].

صور زرية تتركها في الخيال لفظة المقبوحين حيث ترسم صورة القبح والفضيحة والتشنيع وجوّ التقزز والاشمئزاز[2] من فرعون العُتُلّ المتعالي.

كما ورد ذكر فرعون في سورة الفجر حين سخّر جنده، فتمردوا على كل حقّ وعتوا وعاثوا في الأرض فساداً، وبسطوا الأذية للناس[3] وكان أجنادُهُ طَوْعَ إشارته وهم الذين يشدون له أمره، ويوطدون له سلطانه، لكنَّ الله كان لهم بالمرصاد فأنزل عليهم رجزاً من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[4] [الفجر: ١٠-١٤]. «والسوط في عرف العرب يكون سبباً للعقوبات الواقعة، والآلام الموجعة، وإنما سيق هنا على سبيل الاستعارة المكشوفة المراد بها العذاب المؤلم والنكال المرمض»[5].

---

(١) ابن كثير ٣/ ٣٩٠.

(٢) «في ظلال القرآن» ٢٠/ ٦٨ ـ ٦٩ تحليل وتعليق لما جاء في وصف فرعون.

(٣) ابن كثير ٤/ ٥٠٨.

(٤) ورد للأوتاد معان كثيرة، منها الجنود الذين يسترون لفرعون أمره.

(٥) «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص: ٢٧٧.. وقال بعضهم في حديثه عن السوط: قد يكون معنى السوط العذاب، أو وقع العذاب يخالط اللحوم والدماء فيسوطها من قولهم: ساط القدر إذا حرّك فيها وخلطه في السوط، وعلى هذا القول ههنا فالسوط مصدر وليس باسم ـ المرجع السابق نفسه ـ ص: ٢٧٧.

وأما في سورة الدخان فنلاحظ أن القرآن الكريم يعرض النعيم الذي كان فرعون وجنوده يتمرغون فيه؛ يتقلبون بين جنان نضرة، وعيون ماء دفّاق، ومزارع خصيبة غنية[1]، وهدوء ورخاء، ونعيم يخلب اللب، يتناولون أطايب ما احتوت الأرض، لكنهم جحدوا النعمة، فجاءهم العذاب ثم حرموا أسباب النعيم حين ابتلعهم البحر بمائه، ولم تبك عليهم أرض ولا سماء: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ـ٢٩].

وقد عرض سيد قطب في ظلال القرآن لهذا المشهد بروح شاعرية، وأسلوب تَطْفِرُ منه الحيوية عندما علّق على الآية الكريمة السابقة: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩]

فقال: «تعبير يُلقي ظلال الهوان، كما يلقي ظلال الجفاء، فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء، ولم يكسف عليهم أحد في أرض ولا سماء، وذهبوا ذهاب النعال، وهم كانوا جبارين يطأون الناس بالنعال. ذهبوا غير مأسوف عليهم، فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه، وهو مؤمن بربه وهم كافرون، وهم أرواح خبيثة شريرة، منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه»[2].

أطال البلاغيون الحديث عن الآية الكريمة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩] ففيها استعارة؛ حيث إن البكاء ههنا بمعنى الحزن، فكأنه قال: فلم تحزن عليهم السماء والأرض بعد هلاكهم وانقطاع آثارهم، وإنما عبر سبحانه عن الحزن بالبكاء؛ لأن البكاء يصدر عن الحزن في أكثر الأحوال، ومن عادة العرب أن الدار إذا ظغن عنها ساكنها، وفارقها قطانها وصفوها بأنها باكية عليهم ومتوجعة لهم على طريق المجاز والاتساع[3]،

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٤١ ـ ١٤٢.
(٢) «في ظلال القرآن» سيد قطب ٢٥/ ١١٦.
(٣) هذا ما جاء في «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص: ٢٢١.

والحقيقة أن الغرض من الاستعارة في الآية ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩] إنما التعظيم لأن العرب تقول، إذا أرادوا تعظيم ملك أو رجل عظيم الشأن رفيع المكان كثير الصنائع: أظلمت الشمس له وكسف القمر لقدره، وبكت الريح والبرق والسماء والأرض، يريدون المبالغة في وصف المصيبة وأنها شملت وعمت[1]. والمعروف أن المبالغة في الاستعارة ليست كذباً، وإنما هي من سبيل إرادة التوضيح واستقصاء الصنعة وانطباع الصورة في المخيلة.

(١) «أثر القرآن في تطور النقد العربي» محمد زغلول سلام ص: ١٣٠ ـ ١٣١ وهذا رأي ابن قتيبة في مشكل القرآن (هامش المرجع السابق).